

احتمال المخلّع ومعنى الحياة

الميتروبوليت أوغسطينوس كانتيو تيس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

"وكانَ هُنَاكَ إِنْسَانٌ بِهِ مَرَضٌ مُنْذُ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً"

السؤال الذي يُطرح أيها الأحياء هو: ما هي الحياة؟ أي متعة؟ أي تسليّة؟ أي رقص ومرح؟ هل هي "فلنأكل ونشرب لأننا نموت غداً"؟ الكثير من الناس يفكّرون بهذه الطريقة، وخاصة الشباب في عصرنا، الذين تنجرفهم الأفكار المادية والإلحادية ويعتقدون أن السنوات القليلة التي سيعيشونها على هذا الكوكب يجب أن يعيشوها بسعادة وبأكبر قدر ممكن من المتعة. إنهم يتبنّون كشعار شيئاً من العبارة الإيطالية "دولتشي فيتا"، والتي تعني "الحياة الحلوة". بالنسبة لهم، الحياة الحلوة تعني العيش ليلاً ونهاراً في مراكز التسليّة المختلفة، والرقص الجامح وغناء الأغاني الفاحشة، والانخراط في السلوك الصاخب، وتعاطي المخدرات لتحقيق جنة كيميائية من المتعة لبضع ساعات. بمجرد مرور تلك الساعات، يقع هؤلاء البائسون في حالة رهيبية من الاكتئاب والإحباط.

بالنسبة للذين يتفحصون الأشياء بشكل أعمق ويفكرون فلسفياً، فإن للحياة معنى أكبر. إن حياة الفضيلة والالتزام ليست مثل طريق ممهد سلس، ومناظر طبيعية مع شجيرات وأزهار يستمتع بها سائقو السيارات المارة؛ إنها تشبه الطريق الضيق والتلال، حيث يواجه سائقو السيارات العديد من العوائق والآلام والتجارب. كما يلاحظ أيوب، إن حياة الإنسان هي تجربة. وما هي التجربة؟ إنها حياة مليئة بالإغراءات والأحزان والضيق. كما يخرج الذهب من أعماق الأرض نجساً ويلقى في أتون النار حيث تحترق كل العناصر التي لا قيمة لها ويصبح الذهب نقياً، بنفس الطريقة يجب أن يمر الإنسان عبر أتون الضيق والتجربة الملتهب لكي يتطهر من عيوبه وردائله وأهوائه.

ومع ذلك، كان هناك وقت لم يكن فيه الإنسان بحاجة إلى التطهر. كان نقياً ونظيفاً. متى؟ عندما عاش بالقرب من الله في الفردوس. ولكن عندما أخطأ الإنسان، لوثت الخطيئة عالم روجه، وأصبح مليئاً بالشرور والعيوب، مثل الذهب النجس الذي يحتاج إلى التنقية والتطهير. منذ ذلك الحين، بعد سقوط الإنسان الأول، بدأت العذابات والآلام والتجارب. الأرض التي كانت نقية فواحة برائحة الزهور الجميلة، أصبحت برية وأخذت تخرج الأشواك. لاقتلاع الأشواك وجعل الأرض منتجة، كان على الإنسان أن يدمي يديه. صارت الحيوانات المرؤضة بريّة وتحولت إلى وحوش تخيف بزئيرها الإنسان. امتلأت الأنهار وفاضت، مما تسبب بفيضانات وكوارث. بدأت الأرض تهتزّ بفعل الزلازل المخيفة. الإنسان أيضاً، الذي كان في يوم من الأيام سليماً وخالداً، أصيب بالمرض والألم والموت بسبب الخطيئة.

ثم أصابت الآلام الإنسان من تقلبات عناصر الطبيعة، من الزلازل والفيضانات. نتجت الآلام من المرض والموت. وأيضاً أصابته من أخيه. هنا كانت أعظم. أصعب الآلام احتمالاً هي تلك التي تأتي من الأصدقاء والأقارب، الذين بسبب الشر الذي بداخلهم يصبّون البلاء كالسم. بسبب هذا الشر المتأثي من أخيه الإنسان، عانى الإنسان من ويلات كثيرة وعظيمة. الظلم والسرقعة والإهانة لشرف العائلة والفسق والزنا والكذب والاعتياب والافتراء والأذى والقتل والجرائم والحروب المرعبة التي تجعل الأرض محنة لا نهاية لها - كل هذا يشكل بئر محنة هائل للإنسان.

حيثما يذهب الإنسان سيواجه آلاماً، أحياناً من عناصر الطبيعة وأحياناً من شر وحقد إخوانه، وأحياناً من نفسه. بعض الآلام تأتي من الشيطان الذي يحاول تدمير الإنسان. أخيراً، تأتي بعض الآلام من الله كلي القدرة والخير والحكيم لغرض تطهير البشرية الخاطئة.

يبحر الإنسان في محيط من الأحزان. هذا أكدّه المسيح عندما قال: "في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا: أنا قد غلبت العالم" (يوحنا ١٦: ٣٣). لم يكن هناك، ولا يوجد، ولن يكون هناك من لا يضطر إلى مواجهة البلاء. إذا وجدت جزيرة غير محاطة بالبحر، عندها قد يوجد رجل لا يتلى بالأحزان.

المشكلة هي كيف يواجه الإنسان المحنة؟ كثير من الناس يمجّدون الله عندما يكونون أصحاب ومحافظهم ممتلئة وأبنائهم زاهون، وحياتهم تسير كما هو مرسوم. ولكن عندما يقطع الضيق الطمأنينة يفقدون رباطة جأشهم ويلعنون يوم ولادتهم. يصبح البعض يائسين لدرجة أنهم ينهون حياتهم بالانتحار.

أيها الإنسان المعذب في الدنيا! عليك أن تتسلح بالصبر للتغلب على الحزن. لاقتناء الصبر، يجب أن تفتح الكتاب المقدس وتقرأ ما يقوله عن الضيق والغرض الذي يخدمه؛ اقرأ عن تلك الأمثلة الرائعة عن الصبر.

في الكتاب المقدس أمثلة كثيرة عن الصبر. أحد الأمثلة على ذلك هو المخلع في قراءة إنجيل يوم الأحد. إنه بطل أعظم من ذاك المنتصر في ساحات القتال الذي ينال أوسمة الشجاعة.

دعونا نلقي نظرة على حياة هذا البطل. لقد عاش في محيط من الآلام. ليس أياماً ولا أسابيع ولا سنوات قليلة فحسب، بل كان مريضاً طوال ثمانية وثلاثين عاماً، وهو مشلول بالكامل. ومع ذلك لم ينتحب ولم يجذف ولم يلعن يوم ولادته. بصبرٍ يذكّر بصبر أيوب، قضى أيام بلائه مؤمناً أن الله لم يتركه، بل سيظهر له يوماً رحمته. وقد أظهر الله رحمته. جاء بنفسه، يسوع المسيح، الإله الحقيقي، وشفى المخلع. كل الذين رأوا اندهشوا من هذه المعجزة. في ذلك اليوم نال المخلع أجرّة الصبر، وهو بطل الصبر، من المسيح الضابط الكل.

عسى أن يكافأ كل منا - رجالاً ونساءً، كل من يعاني من الآلام - على الصبر. لكي نتحمل، دعونا نفكر في أبطال الصبر كالمخلع، وخاصة ملك الألم والحزن ربنا يسوع المسيح الذي قال: "في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا: أنا قد غلبت العالم."

* عظة في أحد المخلع حول يوحنا ١٥: ١-١٥

Source: Drops From the Living Water: Orthodox Homilies On the Sunday Gospel Readings by Augustinos N. Kantiotis; pp. 60-64.